الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

محمد عبده ومحمد اقبال .. رؤيتان في تحديث التفكير الديني

(١-٢)

د.عبدالجبار الرفاعي
مفكر اسلامي

بدأت محاولات الاصلاح الديني والمدني والاجتماعي بأفق جديد في العصر الحديث في مصر مع جهود رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) الذي درس على الشيخ حسن العطار في الأزهر، ثم ابتعث الى باريس وتعرف على الغرب مباشرة، وبعد عودته عمل مترجما ورئيسا لمدرسة اللغات الجديدة ورئيسا لتحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية). غير ان عمله الأهم كان في حقل الترجمة، فضلا عن مؤلفاته العديدة. وفي مرحلة لاحقة وفد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) الى مصر سنة ١٨٧١، وأمضى فيها ثماني سنوات توصف بأنها من أخصب سنوات حياته، احتضن فيها مجموعة من الشباب الذين تعلموا على يديه مبادئ علم الكلام والفلسفة والتصوف والفقه، وكان من أبرزهم السياسي المعروف سعد زغلول، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) الذي اقترن به، واشتركا معا في عدة أعمال، من اهمها نشر مجلة في باريس صدر منها ثمانية عشر عددا باسم (العروة الوثقى) وكان بيان هذه المجلة بصياغة محمد عبده، اما أفكارها فكانت أفكار الافغاني.

ويوصف الافغاني بأنه (عنيف يستحيل ترويضه، أو على حد تعبير بلنط (عبقري بري) وانه كان خطيبا يثير الجماهير، غير انه لم يكن يحب الكتابة، ولم يكتب بالفعل الا القليل).

وقد تأثر محمد عبده بأستاذه الافغاني، وتفاعل معه، وحاول ان يترسم خطاه، ويتمثل تعاليمه، ويقتبس أفكاره، حتى ان جمال الدين عندما ودع اصدقاءه وتلاميذه في السويس حين مغادرته لمصر سنة ١٨٧٩ قال لهم: (لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما).

لكن محمد عبده لم يصاحب الأفغاني حتى النهاية، بعد ان تردد في اعتبار الاصلاح السياسي بوابة لكل عملية اصلاح، كما يرى استاذه، وأدرك ان الاصلاح ينبغي ان يبدأ بالاصلاح التربوي والثقافي حسبما يقول محمد رشيد رضا، بأن محمد عبده ضعف أمله في الاصلاح السياسي ووجه التفاته الى الاصلاح القومي في التربية والتعليم، فصارح جمال الدين في اوروبا، بأنه يرى ان الوسائل السياسية لن يرجى منها خير، لأن تأسيس حكومة اسلامية عادلة مصلحة، لايتوقف على ازالة الموانع الأجنبية فقط، وانه خير لهما لو عكفا على تربية أفراد على مايحبون، في مكان هادئ بعيد، لاسلطان للسياسة فيه، ثم يذهب هؤلاء الرجال بدورهم الى الاقطار المختلفة لتربية مثلهم على ماربوا عليه.

ولانريد ان نؤرخ لحياة محمد عبده، ونلاحق سيرته الفكرية والسياسية، والمنعطفات التي مرت بها، لان ذلك خارج عن غرض هذه المقالة، وانما اردنا الاشارة الى انه سعى للاستقلال عن مشاغل الافغاني السياسية في المرحلة اللاحقة من حياته، وكثف جهوده في الحقل العلمي والتربوي والثقافي. غير انه لم يستطع الانسلاخ من تبعات الشعارات والمفاهيم التي تلقاها من استاذه .

واستأثرت الجهود الاصلاحية للشيخ محمد عبده وآثاره بالكثير من الدراسات وطغى على معظمها الطابع التبجيلي، بالشكل الذي (اصبح محمد عبده بالنسبة لمصر والاسلام، نبي عهد جديد) واعتبره بعض الدارسين (أحد مؤسسي الاسلام الحديث).

ومن اجل التعرف على المكاسب الحقيقية لجهود محمد عبده، ومكانتها المعرفية والثقافية في تحديث التفكير الديني، نحسب ان مقارنتها بآثار محمد اقبال، أحد أهم الوسائل لاكتشاف حجم مساهمات محمد عبده والقيمة المعرفية لآثاره. لانهما عاشا في فترتين لعصر واحد ، واهتم كلاهما بمشاغل اصلاحية متقاربة في منطلقاتها، وان تنوعت مطامحها ومدياتها وآثارها ومصيرها. مضافا الى ان محمد عبدة ينتمي الى مصر والفضاء الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي ، بينما ينتمى محمد اقبال الى شبه القارة الهندية وفضائها الثقافي المختلف. فقد تقدم على اقبال في الهند السير سيد احمد خان بهادر(١٨١٧-١٨٩٨) والذي كان واحدا من أبرز رواد الاصلاح هناك، فهو مؤسس جامعة عليكره سنة ١٨٧٥، التي أراد لها ان تحتضن الاتجاهات الحديثة في الاسلام، وتهتم باعداد نخبة تكتسب مهارات وخبرات في العلوم الانسانية الجديدة، وتعمل على توظيف معطياتها في الدراسات الاسلامية.

لكن الدارس لحركة الاصلاح الاسلامي في الهند لايمكنه تجاهل أفكار ومواقف محمد اقبال (١٨٧٣-١٩٣٨) الذي ولد لأب ينزع الى التصوف وأم لفرط ورعها وتدينها كانت تحجم عن ان تأكل مما يكتسبه زوجها، لأنها كانت تشك في ان رئيسه في العمل يتعاطى الرشوة. اما (أجداد اقبال فكانوا من البراهمة، وأسلم أحدهم عند اتصاله بصوفي مسلم صادق). كما وردت الاشارة الى ذلك في أحد دواوينه. ودخل اقبال في مكتب لتعليم القرآن في طفولته، وأكمل تعليمه بمدرسة البعثة الاسكتلندية في سيالكوت برعاية استاذ بارع بالأدب الفارسي وملم بالعربية هو مير حسين الذي تنبأ لتلميذه بمستقبل باهر، وظفر التلميذ بجوائز عديدة. وفي عام ١٨٩٥ دخل كلية الحقوق في لاهور، ودرس على استاذ الفلسفة الاسلامية هناك المستشرق السير توماس آرنلد، الذي كان له تأثير عميق على حياته الفكرية. وواصل اقبال تعليمه في هذه الكلية حتى نال درجة A.M في الفلسفة. وبعد تخرجه اختير لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بلاهور، ثم تدريس اللغة الانجليزية في الكلية التي تخرج فيها. وفي سنة ١٩٠٥ سافر اقبال الى اوروبا وأكمل تعليمه الفلسفي بجامعة كمبردج، وانهى دراسة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة ميونيخ. واختاره استاذه توماس آرنلد ليحل محله في تدريس اللغة العربية في جامعة لندن بعد توقفه عن التدريس. وفي عام ١٩٠٨ عاد الى موطنه وعمل في المحاماة، ودرس في جامعة لاهور، وصار رئيساً لقسم الفلسفة، وعميداً لكلية الدراسات الشرقية فترة طويلة.

ولعل أهم أثر يلخص الرؤية التحديثية لمحمد اقبال هو كتابه (تجديد التفكير الديني في الاسلام) الذي هو حصيلة ست محاضرات ألقاها في مدراس وحيدر آباد وعليكره سنة ١٩٢٨-١٩٢٩، وهي تعبر عن (اسهامه الكبير في مهمة ايقاظ أبناء دينه في الهند، واعادة النظر في الاسلام بمفاهيم معاصرة وحيّة مستمدة بالدرجة الاولى من حصيلة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين). واستهلها اقبال بقوله: (أحاول بناء الفلسفة الدينية الاسلامية بناء جديدا، آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الاسلام الى جانب ماجرى على المعرفة الانسانية من تطور في نواحيها المختلفة).

وتتميز هذه المحاولة بكفاءتها النظرية، وهندستها التركيبية، وغناها بحشد وفير من معطيات العلوم الانسانية الحديثة، وبراعتها في توظيف تراث المتصوفة والعرفاء والفلاسفة والمتكلمين والاصوليين والفقهاء. حتى عدها أحد الدارسين بأنها: (أول محاولة تامة لاعادة بناء اللاهوت الاسلامي على قاعدة استدنائية). وسنعود الى هذا الكتاب للتعرف على منطلقات محمد اقبال في تحديث التفكير الديني لنقارنها بجهود محمد عبده، خاصةكتابه (رسالة التوحيد) الموازي لكتاب اقبال هذا.

التفكير الديني الحديث في الهند ومصر

يتفق الدارسون على التأثيرات العميقة لمقولات الاسلام السياسي في شبه القارة الهندية على الاسلام السياسي في مصر والبلاد العربية. خاصة مقولات (الحاكمية، والجاهلية،...) التي استقاها سيد قطب من أبي الأعلى المودودي، وصاغ على ضوئها الكثير من مفاهيمه في الدولة، وحدد في اطارها طائفة من احكامه ومواقفه حيال المجتمع. لكن لم يتجل لنا بوضوح تاريخ التواصل بين الاتجاهات الحديثة في الاسلام الهندي والاسلام في مصر، وربما كان جمال الدين الافغاني أول حلقة وصل بين هذين الفضائين الثقافيين، باعتباره من أوائل الذين تعرفوا على الاتجاهات الجديدة في الهند، بعد ان أخرج من مصر سنة ١٨٧٩، ففارق مصر الى الهند وأقام في حيدر آباد الدكن، وهناك صنف رسالته الأثيرة في (الرد على الدهريين)، وهي تتضمن مناقشات لما عرف بـ (النيتشريين) اوالطبيعيين في الهند، وهم أتباع السير سيد احمد خان. ونقلها الى العربية محمد عبده بمساعدة عارف أفندي الأفغاني المعروف بأبي تراب، الذي كان ملازما لجمال الدين. والنيتشرية حركة عصرية أطلقها سيد احمد خان بعد زيارة قام بها الى انجلترا في السبعينات من القرن التاسع عشر. وهي تدعو الى فهم جديد للاسلام اطلق عليه الناس اسم (النيتشرية) وهو مأخوذ من كلمة نيتشر الانجليزية nature ومعناها الطبيعة. وفحوى هذه الدعوة: ان القرآن،

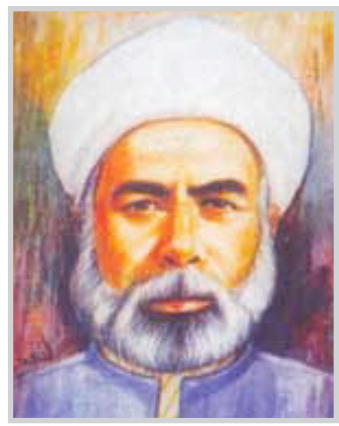
محمد عبده

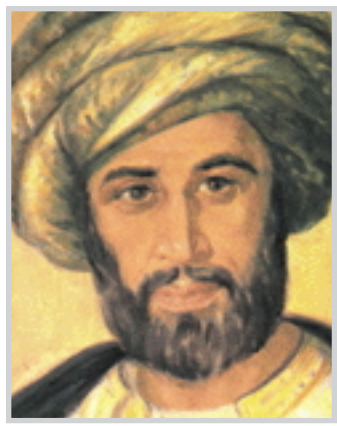
رفاعة الطهطاوي

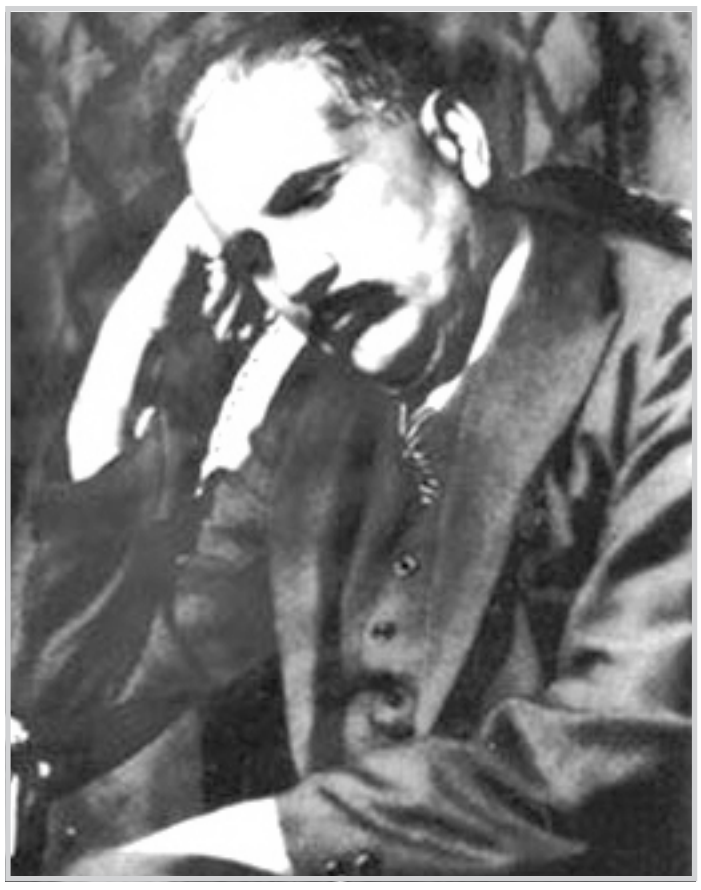
محمد اقبال

لا الشريعة، هو جوهر الاسلام، وان تأويل القرآن يجب ان يتم وفقا لمبادئ العقل والطبيعة، وان النظام الخلقي والحقوقي يجب ان يكون قائما على الطبيعة.

ولاريب في ان السياقات التاريخية والمحيط الثقافي والفضاء الديني في الهند لايتطابق مع مصر، ذلك ان مكونات الفضاء الروحي والمعرفي الهندي زاخرة بالتركيب والتنوع، تبعا لتعدد الأديان واللغات والتقاليد والعادات والثقافات، بينما يفتقر الاجتماع المصري لمثل هذا الفضاء الروحي والمعرفي. وان الخليط الذي تتألف منه ديانات الهند (ساعد على ايجاد عدة مبادلات بين هذه الديانات وبين الاسلام... وان دخول الجماعات الهندية أفواجا في الاسلام قد جرّ في بعض البقاع الى انتقال الكثير من آرائهم الاجتماعية الى حياتهم الاسلامية الجديدة). واثر ذلك اتسم المسلم في الهند بالتسامح مع اتباع الديانات في موطنه، وكان اكثر استعداداً لقبول الآخر والتعايش معه في ذلك العالم الذي يضج بالاختلاف والتنوع. من هنا لم يجد محمد اقبال مايحول بينه وبين الافادة من المعارف الانسانية بغض النظرعن مصدرها، سواء كانت غربية ام شرقية، ولم يصدر في مواقفه الفكرية من معايير عقائدية او ايديولوجيا اصطفائيةتنفي الآخر. وهذه ميزة لاتنفرد فيها آثار محمد اقبال وانما طبعت الانتاج الفكري للاسلام الهندي في القرن التاسع عشرومطلع القرن العشرين، بيد ان تأثيرات التيار السلفي الوافد الى الهند في مرحلة لاحقة جنح بالتفكير الاسلامي هناك لاتخاذ مواقف احادية اقصائية مغلقة، توطنت في (ندوة العلماء) في لكهنو، وبدأت بانشقاق شبلي النعماني عن السير سيد احمد خان، وبلغت ذروتها في آثار ابي الحسن الندوي وابي الأعلى المودودي، والأخير يعتقد بتحيز العلوم التجريبية، ويعتبر العلوم التي بدأت في الغرب موجهة لخدمة المفهوم الغربي والفوضى والالحاد.

رؤيتان في تحديث التفكير الديني

من اين يبدأ تحديث التفكير الديني؟ وهل هناك أولويات في سلم المعارف التي ينبغي البدء بها؟ ولماذا أخطأت الكثير من محاولات التحديث الدرب؟ من اين نبدأ؟ واين ننتهي؟

ليس بوسعنا تقديم اجابات صارمة ونهائية على مثل تلك الاستفهامات، لكننا نحسب ان اخفاق الكثير من محاولات التحديث يعود الى عدم القدرة على ادراك الأولويات، والانخراط في مشاغل فكرية واجتماعية تبتعد عن مرمى التحديث، ولاتلامس مرتكزاته الأساسية، ولم تظفر بصياغة ادواته المنهاجية، ذلك ان بعض رجال الدين يتقنون فن الاثارة، واستفزاز الجمهور، من خلال اطلاق مايشبه المفرقعات التي تصدم وجدان المسلم، وتفزع التدين التقليدي، وعادة ما تقتصر محاولات هؤلاء على اذاعة مجموعة فتاوى فقهية بديلة، في قضايا حياتية حساسة يبتلي بها عامة الناس، وتخالف اجماع أومشهور الفقهاء. فيختزل تحديث التفكير الديني في ذلك، ويخلع الناس ابتداء على مثل هذه المحاولات ودعاتها عناوين(الانحراف، والتجديف، والتبديع) وفيما بعد يصفونها بـ (الاصلاح، والتحديث، والتجديد)، بالرغم من ان التحديث لايمكن اختزاله في مجموعة فتاوى، بل ان عملية التحديث تنطلق من موقع آخر، يطاول البنى التحتية والهياكل الأساسية، والجذور والمنابع، ومصادر الالهام التي ترفد الرؤية الكونية، وتتغذى منها المفاهيم الاعتقادية، والافكار الكلامية، وكافة الآراء الاصولية، والاحكام الفقهية. بمعنى ان الفقيه مثلا لايستطيع ان يستنبط احكاما مواكبة لعصره الا اذا تغلب على أساليب الاستنباط الفقهي الموروثة واستبدلها بأساليب اخرى، اذ ان المعرفة الفقهية محصلة لمنطق خاص يتمثل باصول الفقه، وما لم يتمكن الفقيه من تجديد اصول الفقه والافلات من منطق الفقه القديم فليس بوسعه تجديد الفقه. واصول الفقه معرفة تشتق من مرجعيات فلسفية ومنطقية وكلامية ولغوية، وعملية تحديث هذه المعرفة ترتبط بنمط المعطيات المولدة لها.

ان تشكيل معرفة دينية مواءمة للعصر يتوقف على اعادة بناء لاهوت جديد أوفلسفة دينية تحدد لنا مكانة الانسان في العالم، ونمط العلاقة بينه وبين الله، وحقيقة الدين، وحدوده، ومجالات التدين، وطبيعة الظاهرة الدينية ...الخ. وهذا النوع من الابحاث يتطلب التحرر من الابستمولوجيا الكلاسيكية، وتوظيف معطيات الابتسمولوجيا والعلوم الانسانية الحديثة في الدراسات اللاهوتية.

ولعل أهم مايلفت نظر دارسي تراث محمد عبده والمهتمين بتقويم جهوده الاصلاحية هو مجموعة فتاوى جريئة أصدرها في مسائل اجتماعية، أباحت ايداع الاموال في صناديق التوفير وأخذ الفائدة عليها، وحلية ذبائح أهل الكتاب، وجواز ارتداء ملابسهم . مضافا الى انتهاج محمد عبده نهجا يعتمد على العلوم الطبيعية الحديثة في التفسير، اذ يؤول الجن في القرآن مثلا بالميكروبات، ويحاول تأويل ماورد في القرآن عن أصل الانسان تأويلا يتوافق مع نظرية داروين، ويرى ان في القرآن محلا لنظريتي (تنازع البقاء، والبقاء للأصلح)...وغير ذلك. واقتفى أثره طنطاوي جوهري الذي كتب تفسيرا موسعا في ستة وعشرين جزءا (بدأ بالظهور منذ ١٩٢٣) (فسر فيه القرآن تفسيرا علميا عصريا استوعب مختلف المعارف المعاصرة، من علمية وانسانية وسياسية ـ بل وصحافية ـ بشكل موسوعي تراكمي، وبأسلوب المصنفات العربية القديمة في السرد والاستطراد ...).

كما يجد الدارس مساهمة محمد عبده في اللاهوت متمثلة في كتابه المعروف (رسالة التوحيد) التي أستأثرت باهتمام واسع من دارسي فكره، واعتبرها بعضهم مسعى (في سبك علم التوحيد في قالب أكثر تمشيا مع طرائق التفكير الحديث). واعتقد الدكتور حسن حنفي بأنها محاولة رائدة في تأسيس علم كلام جديد.

لكن قراءة متأنية لهذه الرسالة ترينا انها تعبر عن موقف من علم الكلام أكثر مما تعبر عن موقف في علم الكلام، وقد وردت المسائل الكلامية فيها بشكل مدرسي تقليدي مبسط، لايتجاوز صياغة القديم ببيان جديد فهي تفتقر الى التجديد في لغة ومصطلحات علم الكلام، كما لا تترسم ابتكار منهج آخر في البحث الكلامي، أو بلورة ادوات اجرائية مختلفة، أو بناء هندسة معرفية بديلة للمباحث الكلامية. وقد امتنع فيها عبده عن الدخول في مسائل سيطرت على علم الكلام ، كالسؤال عن الصفات وعلاقتها بالذات، وهو موقف مشابه لما فعله الغزالي في (تهافت الفلاسفة). كما نص فيها على عدم التعارض بين الوحي والعقل، تبعا لما قاله ابن رشد وغيره من الفلاسفة، واهتم بطرح بعض الآراء المعتزلية في خلق القرآن والحرية والارادة الانسانية، وان كان أسقط (هو أوتلميذه رشيد رضا ١٨٦٥-١٩٣٥) مسألة خلق القرآن في طبعة تالية، خشية الاحتجاج الذي يمكن ان تثيره هذه المسألة.

ويبدو ان تحديث محمد عبده توقف عند المسائل الفقهية والتفسيرية، من دون المساس بالقضايا الايمانية النظرية الداخلة في نطاق (علم العقائد) أو (علم الكلام).

اما محمد اقبال فسعى لزحزحة علم الكلام القديم، وتمحورت جهوده على بناء فلسفة بديلة للدين، ليست مكتفية بذاتها وانما اغتنت بما استوعبته وتمثلته من معارف الآخر.

وخلافا لمحمد عبده الذي نهى عن الخوض في الذات والصفات والقدر، فقال بصراحة (انني لاأحب ان أتكلم في هذا الأمر أكثر من هذا، والا لم أكن من الصابرين، ولخضت في أعمال القدر مع الذين خاضوا فيه). نجد محمد اقبال يستهل كتابه بقوله (ان التفكير الفلسفي ليس له حد يقف عنده، فكلما تقدمت المعرفة، وفتحت مسالك للفكر جديدة، أمكن الوصول الى آراء اخرى).

ويبدأ اقبال بحثه في بيان امكانية استخدام المنهج العقلي الفلسفي في مباحث الدين، وتحليل جوهر الدين، والجذور العميقة للايمان وماينطوي عليه. وهذا يقوده الى الاستعانة بآراء جماعة من الفلاسفة والمفكرين الغربيين في تفسير الدين كظاهرة وجدانية وايمانية واجتماعية، وبموازاة ذلك يحرص على استنطاق الموروث الاسلامي، خاصة آراء المتصوفة والعرفاء والفلاسفة.

لقد توفر هذا الكتاب على بناء اطار منهاجي للدراسات اللاهوتية في الاسلام، تتحدد فيه أولويات البحث، ونقطة البداية، والمنطلقات الاساسية، وأدوات التعاطي مع الابستمولوجيا والعلوم الانسانية الحديثة، ووسائل اكتشاف البؤر المضيئة في التراث، ومدى الافادة من عناصره الحية، ودمجها بمكاسب المعارف الجديدة، وتوليفها في هندسة معرفية متناسقة الاجزاء.

ففي استقراء سريع لـ (تجديد التفكير الديني في الاسلام) يطالع القارئ آراء فلاسفة ومفكرين وعلماء غربيين، مثل (لوك، هيوم، هوكنج، برغسون، فرويد، ديكارت، بركلي، نيوتن، رسل، زينون، دريش، ولدن كار، ماكتاجارت، برود، اوغسطين، منك، ماكدونالد، نومان، برونج، شوبنهور، برادلي، بلانك، هيغل، لوردهالدين، رونجير، الكزاندر، رويس، جون ستيورات مل، روجربيكون، شبنجلر، هورتن، هيزنبرج، جورج فوكس، اينشتين، وليم هاملتون، لايبنتز، يونج، داروين...). وربما لانجد مفكرا اسلاميا يتسع أحد مؤلفاته لاستيعاب آراء هذا العدد الوفير من المفكرين في تلك الفترة. وهذا الحشد للمعارف الغربية يشي بموقف موضوعي من العلوم الحديثة، ويستند اليها كمرجعية هامة في تفكيك التراث وغربلته، وتأويل النص ومعرفة مجالاته التداولية، والتوغل في الظاهرة الدينية واستجلاء مدياتها في النفس، وحقلها وحدودها في الاجتماع البشري.

ويحكي لنا هذا الطيف من الاسماء عن تنوع مرجعيات تحديث التفكير الديني عند اقبال، فهو تارة يستلهم مقولات الفلاسفة، واخرى يتعاطى مع خبرة اللاهوت المسيحي الجديد، وثالثة يستعين بعلماء النفس، أوالاجتماع، و...غيرهم .وهو بذلك يتخلص من حالة الوجل والالتباس حيال معطيات اللاهوت والعلوم الانسانية الحديثة التي طبعت تفكير الكثير من الاسلاميين اليوم.

أسرار بئر سفارة العراق بالرباط ولعنة الأخ الأكبر!

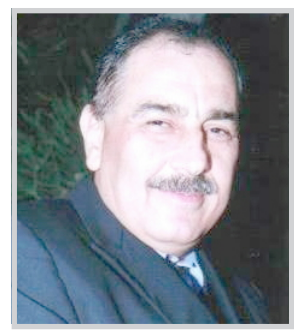

فيصل عبد الحسن
كاتب وصحافي - المغرب

قبل أيام لبيت دعوة غداء مع عدد من ممثلي الجالية العراقية في المغرب أقامها على شرفهم سفير العراق عبد المحسن محمد سعيد وقد كان الحاضرون أثناء الدعوة يتحدثون عما يحدث في الوطن العزيز من أحداث تهز الوجدان وتقلق الفكر على الأهل والأصدقاء، وكان معظم الحديث يدور عن العمليات الإرهابية وأعمال الخطف للمواطنين العراقيين من أماكن عملهم أو من شوارع العاصمة وحتى من أبواب جامعاتهم ومدارسهم، وهذه القصص المحزنة أعادتني لما عشناه في عهد نظام صدام حسين من هواجس الخوف والرعب عندما كانت الأجهزة الأمنية الحكومية تختطف أو تغتال ناشطا سياسيا أو متهما بالعمل في السياسة أو تعتقل مواطنا ربما لمجرد ترويع الناس وأخافتهم من العمل السياسي، ولي أن أروي حكاية ما حدث هنا في المغرب في تلك الفترة عن بئر سفارة العراق في الرباط ومقارنته بما كتبه الأدب عن الأنظمة الشمولية وهو يعكس صورة متشابهة في كل بقعة من بقاع العالم تكون فيها هذه الأنظمة حاكمة حكما مطلقا فهو يستخدم تجربة إنسانية مؤثرة كمادة خام لصياغتها في قالب أدبي وأتذكر مدى التأثير الذي أحدثته في كتابات جيلنا السبعيني في العراق رواية ١٩٨٤ للكاتب الانجليزي جورج أور ويول حيث يتناول الكاتب شخصية دكتاتور ويصفه بأنه الأخ الأكبر –تدور أحداث رواية ١٩٨٤ في (المستقبل) بمدينة لندن عام ١٩٨٤ حيث وينستن سميث موظف ذو ٣٩ عاماً من العمر وهو يعمل موظفاً في وزارة الحقيقة أي انه صحفي يراقبه رجال الشرطة و يراقبه جيرانه رغم انه ليس مجرماً وليس ملاحقاً ولكن الرقابة نوع من السلوكيات اللاإرادية التي يقوم بها الجيران ضد جيرانهم لذلك يصبح سميث تحت عين أوبرين صديقه وعضو الحزب الذي يراقبه عن كثب.

وجورج أور ويول(أسم مستعار لإريك بلير) الكاتب البريطاني المعروف –مبدع تسمية الأخ الأكبر الذي يراقب كل شيء تقوم به ويحاسب على كل شيء لا يروقه ويدير الدولة بيد من حديد ولا تأخذه بالناس شفقة ولا رحمة في دكتاتورية مطلقة كأنما كان الروائي الانجليزي يتحدث عن مظالمنا، والكاتب الذي أقدم على كتابة روايته في أربعينيات القرن العشرين، كأنه كان يعيش معنا في زمن غير زمنه وهذه حقيقة الإبداع، أنه في جوهره الكلي استقراء لأذواق وأعراف وأفكار ستولد فيما بعد .

لقد تحدث عن سلطة "الأخ الأكبر" الذي يمثل الحزب الحاكم وأعوانه وعن شتى أنواع التعذيب والقمع والخطف الذي سيتعرض لهما المواطن في تلك الحياة. المرصودة بأجهزة"الأخ الأكبر" الذي يترصد كل حركاتك، همزاتك ولمزاتك، ليس هناك مكان تستمتع بحريتك فيه إلا تلك السنتيمترات المربعة داخل رأسك، وحتى تلك يمكنهم أن يترصدوها من خلال تعبير وجهك!

هذه الرواية السياسية تتشبث في نبوءاتها بجميع أنواع السلطات بما فيها مدعي الحرية وإعلامها المزيف الذي يقلب الحقائق لتتماشى مع مصلحة السلطة .

ما ذكرني بهذه الرواية أولا فوزها كأفضل رواية مؤخرا وكذلك دعوة الغداء التي تلقيتها حيث غلبني التفكير فيما مضى من أيام تأريخ سفارة بلدنا في هذا البلد الكريم أثناء حكم نظام صدام حسين وكان وقتها العراقيون في هذا البلد لا يجرؤون من الاقتراب من بيت السفير العراقي ولا من سفارته فقد كانت وكرا حقيقيا للأفاعي ومقرا لإدارة الأعمال المخابراتيه المشبوهة ضد الدول العربية الشقيقة وضد العراقيين الأحرار وضدا لبعضهم البعض !

وحسب نظريات الأخ الأكبر التي تخون الأنظمة العربية وتستعديها بغير حق في الكثير من الأحيان، ولا ترى في الأرض صالحا غير أفكارها العنصرية ونظامها الشمولي، ولا نجباء غير أتباعها ومواليها .

وكلما اضطرني طارئ للذهاب إلى مبنى السفارة العراقية في الرباط بعد سقوط نظام صدام حسين ورأيت ما خلف أركان البعثة الدبلوماسية السابقة من بناء فخم وأثاث وثير ورياش ووسائل ترفيه وحدائق غناء تذكرت قول الله العزيز : وتلك عروشهم خاوية بما ظلموا... فأقول مع نفسي سبحان الله لم يقل العزيز الجليل، وتلك عروشهم خاوية بما فسقوا !!ولم يقل تلك عروشهم خاوية بما سرقوا!! ولم يقل تلك عروشهم خاوية بما كذبوا!!.. وهم قد فعلوا كل تلك الموبقات.. بل قال وهو أحكم قائل : وتلك عروشهم خاوية بما ظلموا، وكأنه يؤجل كل انتقام من عباده الذين يسرفون على أنفسهم ما عدا من اقترف جريرة واحدة تهتز لها أركان السموات والأرض : جريمة ظلم الناس، التي بشر الله تعالى بعاقبتها الوخيمة السريعة لفراعنة الأرض بأن عروشهم ستكون خاوية تنعى أصحابها ويرثها قهرا من بعدهم الصالحون في الأرض ..

في بناية السفارة العراقية لا تزال آثار تلك البئر العميقة المخيفة التي كان يهدد بها أفراد المخابرات المواطنين العراقيين برمي أي معارض منهم يتواجد في المغرب فيها حتى الموت جوعا وعطشا فماء البئر ملح أجاج لا يمكن استساغته أبدا، والبئر مغطاة بلوح خشبي سميك ماعدا فتحة صغيرة وسطه، ويبقى من يلقى فيها لا يشعر به أحد، ووقتها كانت تدور بين العراقيين قصص مرعبة عن أسرار الأذين الصادر من تلك البئر المخيفة ومصير من تستطيع مخابرات النظام الصدامي استدراجه إلى مبنى السفارة العراقية، وأتذكر أنني وعدد من اللاجئين السياسيين في المملكة المغربية أبلغنا مفوضية الأمم المتحدة بالدار البيضاء عام ١٩٩٨ عما نسمع عنها من حكايات مرعبة، وقد كانت تلك المفوضية وقتها بمبناها الصغير قريبا من- السيتي بنك- وسط العاصمة الاقتصادية للمغرب –الدار البيضاء - قبل أن تنتقل إلى الرباط بعد ذلك وهي التي كانت ترعى شؤوننا وتحمينا وفق معاهدة جنيف لعام ١٩٥٤ التي وقعت عليها الدولة المغربية، ورغم إمكانياتها المادية المحدودة وبما تتيحه القوانين في المملكة المغربية من تسهيلات، ووقتها ثبتنا أيضا للمفوضية فيما أتذكر مبنى الخطوط الجوية العراقية في شارع الجيش الملكي بالدار البيضاء كمنطقة خطرة للاجئين العراقيين، وأشرنا لهم أنه مكان مهم لتجمع مخابرات النظام السابق حيث توضع الخطط فيه للإيقاع بالمعارضين العراقيين كما في دول كثيرة حيث يتم تخديرهم وشحنهم للعراق بتوابيت وشهادات وفاة مزورة لتتم تصفيتهم هناك، وحكاية تصفية الدبلوماسي العراقي الذي أنشق على سفارة صدام وفشلت كل الخطط باختطافه، فتمت تصفيته بإطلاق الرصاص عليه وقتله شمال العاصمة، مما وتر العلاقات الدبلوماسية وقتها وهي قصة معروفة لجميع العراقيين وقد كنا مع عدد كبير من اللاجئين الأفارقة والجزائريين نتبادل الهموم والمخاوف وقتها برغم تأكيدات السلطات المغربية لنا في كل المناسبات بأن لا مبرر لخوفنا لأنها تسهر على حمايتنا من كل أذى ممكن أن يحصل لنا ولأسرنا فوق التراب المغربي وبرعاية الأسرة الملكية العلوية الشريفة التي حمت لاجئي المغرب على مر التأريخ وبمختلف الظروف الدولية.

استرجعت كل ذلك الماضي المخيف وأنا على مائدة سفيرنا في بيت العراقيين جميعا في المملكة المغربية كما يسميه الأخ السفير عبد المحسن محمد سعيد وزوجته الأخت أم إبراهيم –أخت وأم العراقيين في المغرب - المرحبة دوما بالعراقيين في دارها العامرة بحب العراق وأهله في دعوة الغداء الكريمة قبل أيام مع عدد من ممثلي الجالية العراقية في المغرب وقد أرجعني الكرم العراقي والحفاوة التي لقيناها من سعادة السفير وزوجه الكريمة إلى لقاءاتنا الأسرية الحميمة في العراق بمناسبة إعلان الخطوبة، والأعراس والطهور وأفراح النجاح والتخرج من الجامعة، وأشعرتنا أن العراق بالرغم مما مر به وأهله من سوء وأوقات شدة سيبقى شعبه ورغم ما أصابهم من خراب روحي ونفسي وأحزان أحسن الناس وأنبلهم وسيفخرون بأمثال الأستاذ عبد المحسن محمد سعيد وغيره ممن يحبون العراق وسيكون حال العراقيين في المملكة المغربية أحسن حالا من أي وقت مضى وسيبقى فوق الرؤوس جميعا يشمخ في الباحة الرئيسية للدار علم العراق بألوانه الزاهية وكلمتي الله أكبر تزيدان من هيبته، وفي هذا الجمع المتجانس من العراقيين، العربي و الكردي والتركماني، المسلم والمسيحي ومن وسط العراق ومن غربه ومن جنوبه، جمع متحاب في الله والوطن .

حاولنا ونحاول دوما مسح قلوبنا من الأحزان والذكريات المريرة وجربنا أن ننسى بئر السفارة العميقة التي كان ينطلق منها في تلك الأيام السوداء الأنين الخافت المتواصل عند المساء - كما حدثنا بذلك من مروا قريبا من ذلك المكان في تلك الأيام- دون أن يعرف أحد أسراره بالرغم من قربنا من تلك البئر وكنا نتساءل هل كان أقطاب السفارة السابقون يذيعون تلك الأصوات من خلال ميكرفون مكبر ربط إلى جهاز تسجيل ينطلق صوته قريبا من بئر السفارة لغرض بث الخوف والرهبة في نفوس رعايا بلدهم ؟ لا احد لحد هذا اليوم يعرف ما أسرار ذلك الأنين الذي صمت إلى الأبد بعد سقوط نظام صدام حسين كما أن الخجل منعنا من طرح السؤال على سعادة سفير بلدنا الجديد، فليس من الأدب والمعقول أن تسأل عن أسرار تلك الفترة المظلمة وأنت على مائدة طعام ! ومن عادة الشعوب أنها تستعد بعد الأيام الصعبة التي تواجهها لاستقبال غد جديد متألق بالأمل والمحبة والخير. ولكن ولا بد من هذه آل – لكن- اللعينة لا يزال للأسف طيف الأخ الأكبر يعشش في عقول البعض من أبناء العراق.. أنه يناديهم لسلوك طريقته في الحياة لحمل أفكاره الإجرامية فيستجيبون، وكأنما أصيبوا بلعنة أبدية أسمها لعنة الأخ الأكبر.